البعد الوطني في الشعر الجزائري الحديث مفدي زكريا نموذجا

الدكتـور: الحاج جغدم
جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف- الجزائر

الملخص:

كانت قضيّة الوطن ومأساة الشعب، من القضايا التي تشغل بال الشعراء الجزائريين على عهد الاستدمار الفرنسي، حتى غدا الجانب الوطني من الموضوعات التي أخذت حيّزاً في متون هؤلاء الشّعراء، على اختلاف مشاربهم يترصدون الأحداث ويسجلونها بين أبيات قصائدهم.

وفي ظلّ هذا الواقع كوّن الشّعراء قوّة ضاربةً في وجه عدوّ كان همّه القضاء على الشخصية الوطنيّة ومسخ الهويّة العربيّة الإسلاميّة الضاربة في أعماق التاريخ، وغلق الباب أمام دعاة الاندماج.

وعلى بعد سنوات فقط من النهضة الفكريّة والسياسيّة التي ظهرت بوادرها في أعقاب الحرب العالميّة الأولى تلقّى الشاعر مفدي زكريا طعنة من طعنات الاستدمار، وصار يعاني الضّياع منذ أن تعلّق بوطنه ما جعل قضيّة وطنه شغله الشاغل.

– من هنا تروم هذه الورقة البحثية الموسومة بـ "البعد الوطني في الشعر الجزائري الحديث مفدي زكريا نموذجا، إبراز البعد الوطني في شعره مستظهرين المأساة الوطنيّة التي أججت نار الشاعر، حتى غداَ الوطن لديه قطعة قدسيّة.

الكلمات المفتاحية: الشعر الجزائري؛ مفدي زكريا.

البعد الوطني في شعر مفدي زكريا:

إنّ المتصفح لشعر مفدي زكرياء* يجد الشاعر لم يكتب قصيدة إلاّ وضمّنها ما يتعلق بالوطن، الذي بلغ عنده حدّ التّقديس.

يقول الشاعر:[1]

إنّ الجزائر قطعة قدسيّة في الكون لحنها الرصاص ووقعا

يقول صالح خرفي في هذا الصّدد: «فكلها شعر وطني قومي، حتّى في الباب الذي أطلقنا عليه: الشعر العاطفي، بينما هو شعر سياسي بلسان العاطفة وكذلك الأمر الذّي لو جمعنا بعض النّصوص القليلة في الوصف والمناجاة الذّاتية، وأفردناها بباب تحت عنوان الشّعر الذّاتي "أو الوصفي" فإنّنا لا نعد وقد قدمنا وجهاً آخر من أوجه القضيّة المقنعة بالوصف أو الذات».[2]

ومفدي زكريا الشّاعر الثّائر، أخلص لوطنه ولم يفرّق أبداً بين طوائف المجتمع بل كان هدفه الأوّل الجزائر، شعباً، وأرضاً، وقيماً، وانتماءً ضارباً في التاري، وهكذا ظلّ هو «الناطق الرسمي باسم فئة اجتماعية معينّة، يحمل إيديولوجيتها ومطالبها ويدافع عن مصالحها».[3]

ضلّ الشاعر مفدي زكريا يغرّد للوطن زمناً طويلاً، متغزّلاً به «وإذا تغزّل شعراؤنا فتغزلهم منا ضل هو الآخر وسياسي، وقد تكون هذه الازدواجية بين التعبيّر الشعري والمضمون السياسي، وتنفسياً عن الذاتيّة المكبوتة والقوميّة المضطهدة في آن معاً، وإنّ كان هناك غزلٌ في محبوبته فلا مناص من هذا عند الشعراء، لكن تبقى الصّدارة للشعر الوطني».[4]

إنّ الشعر الجزائري الذي عرف عن الأغراض التّقليديّة خدمة لقضيّة الوطن في فترة من فترات الاستدمار، فرض على نظميه الاعتراف من الأغراض الجديدة، ولعلّ أبرزها الغزل السّياسي، فكان مفدي من الذّين حملوا شعاره فظلّ يتغزّل بوطنه غزلاً سياسياً أ بالأحرى صار الغزل عنده رمزاً موازياً، وإنّ كان يفصح عن حبّه لوطنه دون اللجوء إلى الرّمز[5].

وعليه، فإنّ «طغيان هذه المضامين كان أمراً طبيعياً فرضته دواعي الواقع الاجتماعي والسّياسي والدّيني، حيث بات من الضّروري وفند استغلال كل وسيلة متاحة للنهوض بالبلاد، ومن هنا كان الشعر إحدى الأسلحة المستخدمة في مقاومة الاستعمار من جهة ومعالجة الوضع الاجتماعي من جهة ثانيّة»[6].

لقد أذكت المأساة الاجتماعية والسيّاسية التي يعيشها الشعب قرائح الشّعراء وحرّكت وجدانهم، ودفعت بهم إلى التّعبير شعراً عن آلام الشعب وطموحه في العيش، فضربوا صفحاً عن المدح والهجاء، وأغرقوا في الشعر الاجتماعي والوطني، فكان «شعرهم كله حماسة وثورة، وذلك أن الشعراء هم أكثر النّاس إحساساً بعمق المأساة وألم المعاناة، ومن ثمة فهم أقوى الخلق تعبيراً عنها، وأبلغهم تصويراً»[7].

يقول الشاعر مفدي زكريا:

وطني بالدّم الزكي أفـــــــديـ ـك يمينا شريفة وعهـــــــوداَ
وطني في هواك أخلصت شعري وضميري ومهجتي والوجـــوداَ
وطني أنت جنّة الخلـــد في الأر ض فهيهات في الورى أن تبيـداَ
وطني إنّنا ضحاياك في السّلـــ ـم، وفي الحرب بغيّة أن تسوداَ
فإذا شئت فاتّخذنا سيوفـــا واتّخذنا إذا أردت وقـــــــوداً[8]

ما أسعد القارئ وهو يتصفح هذه المقطوعة التي قيلت بمناسبة المهرجان الذّي أقيم بتونس على شرف الأستاذ الشيّخ الثعالبي بعد عودته من منفاه[9]، وفيها أبان أسد "بني ميزاب" عن تعلقه مرّة أخرى بقضيّة الوطن، ومقاومته لكلّ أشكال السّيطرة الاستدمارية.

– إنّ النص من الناحية المضمونيّة- يعبّر عن استعداد مفدي زكريا تقديم روحه قرباناً في سبيل أن يسود الوطن، وما التكرار الحاصل في النّص للفظة "الوطن" إلاّ دليل على أنّ الشاعر شديد التّعلق بقضية وطنه، ومن أجلها صار كل شيء لا معنى له، فالدماء الزّكية بمثابة الغيث الذّي إن نزل أنبت جيلاً مقاوماً، والأجسام بمثابة الوقود الذّي يزيد في اشتعال نيران الحرب وسط المعركة بين الطرفين بغية أن يستمر وجود "الوطن" الذّي وقع بين فكي ذئب هرم.

لأجل ذلك، غدا "التكرار" عند مفدي زكريا تقليداً فنيّاً يلجأ إليه للتأثير على المتلقي، قصد انتشال الوطن من محنة الاستدمار، يقول علي البطل: «والتكرار في حدّ ذاته وسيلة من الوسائل الشعريّة التي تعتمد على تأثير الكلمة المكرّرة في أحداث نتيجة معيّنة»[10].

وعليه، يقول صبار نور الدين عن هذه القصيدة: «أيّ حبّ وأي ولاء أي ودّ، أي وفاء هذا الذّي تفيض به هذه المقطوعة الشعرية عندما يهب الشاعر لوطنه الذّي عشقه وهام به، ففي سبيل الوطن يمسي كلّ شيء لا قيمة له عند الشاعر، حتى تتحوّل النفوس نسوفا بتارة، والأجساد وقوداً تتلظى سعير نيران المعارك...»[11].

ولكن، أيّة جزائر هاته التي يتعشقها زكريا ويغنى غراماً في حبّها ويقدم فداءً لها الرّوح والدّم، إنّها الجزائر ذات الأمجاد التاريخيّة العظيمة، الجزائر الأصيلة كما تتمثل له في وجهها الإسلامي السّمح، وسياقها العربي المبين، وكيانّها المتضامن المتألف.

إنّ قضيّة الوطني التّي سكنت روح الشّاعر ومأساة الشعب التي عاشها في خضّم واقع مدمّر، كانتا دافعين في توجهه نحو ميدان الشّعر، والمصدر الذي تبلورت فيه شخصيته الثائرة المقاومة، كما كانت الحالات الشعوريّة التي سيطرت عليه في مرحلة متقدمة من حياته.

– لقد وجد مفدي زكريا في الشّعر الإطار الأنسب ليتنفس الصّعداء، ما سمح له بالتّعبير عن مأساة الشعب في نمط أوضح من خلاله التّناقض الحاصل بين صاحب الوطن والدّخيل، فالأوّل يعيش حياة "الشّقاء العراء –البهاء –العيش –الرّغيد". يقول مفدي[12]:

أمن العدل صاحب الدّار يشقى ودخيل بها يعيش سعيـــداً؟
أمن العدل صاحب الدّار يعـزى وغريب يحتل قصراً مشيدا؟
ويجوع ابنها فيعدم قوتـــــــاً وينال الدّخيل عيشا غيـدا؟
ويبيح المستعمرون حماهـــــا ويظّل ابنها طريد شريـــدا؟

– لذلك نجد الشّاعر مفدي زكريا في النّص السّابق- يفضح سياسة فرنسا القائمة على لتّحويج، مستلهماً خطابه هذا من إيديولوجية التي اكتسبها في ظّل نشاطه الدّؤوب في صفوف حزبي "النجم"[*] و"الشعب"[**] ومن أهداف "حزب جبهة التحرير الوطني"[***].

إنّ قضيّة الوطن ومأساة الشّعب التي ولّدت في نفس الشاعر مشاعر الغضب بسبب الأوضاع التي كان الشعب يعيشها لم تكن من عوامل التّخاذل والتّستر وراء الجدران خوفاً من آلة المستدمر، بل عاملاً من عوامل التصّدي والمقاومة لكل أشكال التّسلط التي فرضها "الآخر" على "الأنا".

– وأمام هذه التّحولات «كان له نضل الريادة في الحلم بالثورة، فارتفع إلى مستوى النبوءة، ثم واكب مسيرتها المظفّرة لينقل صوراً نادرة من ملامحها البطولية، فكان ممن كتب من قل الثورة ومن صميم جوّ الثورات التي سبقتها منذ عشرات الأعوام، تنشأ وترعرع هذا الشاعر متبيّناً قضيّة الجزائر بكلّ مداها وعمقها وبجميع دلالتها وأبعادها، فعاش تجربة الثورة متحمساً لآلام وآمال الجماهير الشعبيّة الكادحة التي أوقدت لهيبها، ورفعت مشعلها فصوّر ذلك كلّه بواقعيّة حيّة وإخلاص عميق مساهماً في خدمة قضيّة الوطن الكبرى»[13]. فالمأساة التي تابع أطوارها خلال النّص السّابق- كانت الدافع الذي أجّج فيه روح المقاومة داعياً شعبه إلى رفض حياة العبوديّة والسيطرة الاستدماريّة، يقول الشاعر:[14]

نحن قوم جدودنا ملكوا الدنـــ ـياَ، فهيهات أن نعيش عبيـدا
صيد في الدّماء من نخوة الملـــ ـك ينادي بنا العلا والصّعودا
في خبايا الضّلوع للصعب خلـد نا قبوراً زكيّة ولحـــــــودا
"عقبة" يصرخ: النّجاة و"موسى" و"ابن زياد" سجدا وقعـــودا
يا "فرنسا" لا تجهلينا فإنّـــــا قد نهضنا فلا نطيق الركـودا

فالنّص، وإنّ جاء في أسلوب بسيط ريح لا تلميح فيه إلاّ أنّه يبين عن مقدرة الشاعر في استرجاع المجد الضّائع، ليس للنواح والعويل، بل للقفز بهذه الأمة للخلاص من براثين المستدمر بمضمون تتراءئ فيه ملامح الثورة بارزة.

لقد وقف الشّاعر مفدي زكريا أمام التاريخ البشرى عموماً، والتّاريخ الإسلامي خصوصاً لينهل من نبعه، متّخذاً ذلك مصدرا استقى منه مادته الشعريّة، وصاغها في قالب فنّي، فهو بذلك «يريد أنّ يلفت انتباه فرنسا المغرورة، إلى حقيقة نفسها، وكون التّاريخ كفيلاً لإيقاظها من غطرستها، وإنّ لم يقظها الحدث التّاريخي، فإنّ الشعب الجزائري قادر على إعطائها درساً جديدا»[15].

لقد سخّر الشّاعر مفدي زكريا قلمه من أجل وطنه الجزائر ومأساة شعبه العربي المسلم، فالباحث في أشعاره لا يقرأ قصيدة إلاّ وجد فيها دعوة حارة إلى العمل المتواصل لصالح الوطن "الجزائر" وشعبها الذي ظلّ عرضة لجيش مدمر حاول تشويه صمعة الجزائر وطمس شخصياتها العربيّة المسلمة.

فمفدي زكريا، كان قد وقف على الصّراع بين فرنسا والجزائر صاحبة الحقّ التي عرف في حبّها حتّى أصبحت عنده أعزّ مخلق في الوجود، يتألم لآلامها، ويسعد لسعادتها، وفي معرض حديثه في قصيدة "خفقة فؤاد" التي وصف ما يعانيه الشاعر في حبّها من آلام ودموع متمنيّاً أن يبتسم الدهر لها، لدليل على أنّ مفدي زكريا كان من رواد الغزل السّياسي الذي شاع بين شعرائنا على عهد الاستدمار الفرنسي، وفي ذلك يقول مفدي:[16]

رسول الهوى بلغ سلامي إلى سلمـــــى وغاط حميا ثغرها الباسم الألمـــي
وناج هواها، عل في الغيب رحمـــــة تدارك هذا القلب أن يَنقصني همـاً
وبث شكاة من مشوق متيـــــــم له كبد جرى تضيق به غمـــــــاً
فكم تحت هذا القلب من لاعج الجوى وكم بين هذا الجسم من أضلع كلمي

فالشاعر، ها هنا يرمز "سلمى" إلى وطنه "الجزائر" معرباً عن حبّه المطلق لها وحنينه القوي، إلاّ أنّ ذلك الحبّ نغصّه المستدمر وقد إستخدم الرّمز هروباً من انتقادات المجتمع المحافظ، فالشاعر عبّر بهذا الغرض الشعري تعويضاً وتنفسياً وحبّا تطلعاً أو حنيناً وشوقاً إلى وطنه الحر في المستقبل[17].

الهوامش:

* ولد الشاعر مفدي زكرياء بن سليمان الشيخ سنة 1908م في واحة بني ميزان بقريّة "بني يزقن" جنوب الجزائر، وكان جده الشيخ صالح بن يحي رئيساً للإتحاد الميزابي أيام كان وادي ميزاب محافظاً على استقلاله الذّاتي تربطه بالسلطات العثمانية المركزية معاهدة حماية ظلّت ساريّة المفعول طوال عهد الاحتلال الفرنسي بالجزائر إلى حدود سنة 1980م.

[1]- مفدي زكريا: اللّهب المقدّس، هوفم للنشر والتّوزيع الجزئر، ط3، 2000م، ص58.

[2]- صالح خرفي: الشعر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص07.

[3]- محمد علي مقلد: الشّعر والصّراع الإيديولوجي، دار الآداب، لبنان، ط1، 1996م، ص217.

[4]- حوّاس بريّ: شعر مفدي زكريا، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994م، ص62.

[5]- ينظر: حوّاس بري، م- س، ص30.

[6]- زرادي مصطفى: البناء الفني عند أحمد سحنون، رسالة ماجستير مخطوطة، جامعة وهران، 2002م، ص30.

[7]- م – س، ص30.

[8]- مفدي زكريا: أمجادنا تتكلم، مؤسسة مفدي زكريا، الجزائر، 2003م، 149- 150.

[9]- ينظر: محمد ناصر: مفدي زكريا شاعر النضال والثورة، المطبعة العربيّة، غرداية، 1984م، ص13.

[10]- علي البطل: الصورة في الشعر العربي، دار الأندلس، بيروت، ط3، 1983م، ص218.

[11]- نور الدين صبار: الأرض في الشعر الجزائري، مجلة كلية الآداب، ع 1، 2000م، ص23.

[12]- مفدي زكريا: اللّهب المقدّس، ص16.

* تأسس حزب "نجم شمال إفريقيا" بتاريخ 02 جوان 1926م بباريس، وكان هدفه الدّفاع عن حقوق مسلمين شمال إفريقيا، ويقوم على المبادئ – إستقلال الجزائر، جلاء قوات الاحتلال، تأسيس جيش وطني.

** تأسس حزب "الشعب الجزائري" بتاريخ 11 مارس 1937م، وكان يحمل نفس المبادئ التي حملها حزب "النجم" ليواصل مسيرته، وأسس جريدة "الشعب" لساناً له.

*** انبثق حزب جبهة التحرير الوطني عن "اللجنة الثورية للوحدة والعمل" وكان من أهدافه الإستقلال الوطني.

[13]- حواس بري: شعر مفدي زكريا، ص64.

[14]- مفدي زكريا: أمجادنا تتكلم، ص50.

[15]- ابن قويدر مختار: التناص في شعر مفدي زكريا، رسالة ماجستير مخطوطة، جامعة وهران، 2001م، ص194.

[16]- مفدي زكريا: أمجادنا تتكلم، ص89.

[17]- محمد ناصر: مفدي زكريا شاعر النضال والثورة، ص14.